الجهاد ودوره في تبليغ الدعوة الإسلامية

بقلم

دكتور

محمد حسانين البطاح

مدرس بقسم الدعوة والثقافة الإسلامية

وبعد

فقد أرسل الله رسوله مبشراً ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً ، وأمره بتبليغ رسالته فقال سبحانه « يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته »[١] .

فقام عليه السلام بتبليغ دعوة الله على أتم وجه كما وجهه سبحانه بقوله « أدع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن »[٢] .

ولقد كان ﷺ حريصاً على تبليغ ما كلفه الله تبليغه بغير قتال ، لكنه جوبه بالإعراض عن دعوته ، والصد عن اتباعه ، فكان ضروريا رد المعتدين ، وكبح جماح الظالمين ، حتى يتسنى له أداء رسالته إلى الناس جميعاً .

قال تعالى « وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً »[٣] .

ومعلوم أنه لابد لكل دعوة من قوة تحميها وترد عنها أذى المعتدين. والإسلام وهو دعوة الخير لابد له من قوة تحميه حتى لا يذهب الخير ولا يبقى إلا الشر .

لذلك فرض الله تعالى الجهاد وجعله تكليفا ضروريا لا مفر منه لإقامة منهج الله وحراسته فى الأرض .

---

(١) سورة المائدة آية ٦٧
(٢) سورة النحل آية ١٢٥
(٣) سورة سبأ آية ٢٨

وفى هـــذا البحث دراسة لموضوع « الجهاد ودوره فى تبليغ الدعوة الإسلامية » .

وهو يشتمل على ما يلى :

أولا : التعريف بالدعوة الإسلامية .

ثانياً : حاجة الإنسان إليها .

ثالثاً : ضرورة تبليغها .

رابعاً : معنى الجهاد فى اللغة .

خامساً : معنى الجهاد فى الإسلام .

سادساً : أسباب مشروعية القتال .

سابعاً : الغزوات والسرايا ودورها فى نشر الدعوة .

ثامناً : مراحل تشريع الجهاد .

تاسعاً : نماذج من الغزوات والسرايا ودلالتها فى الإسلام .

أولا : التعريف بالدعوة الإسلامية :

الدعوة الإسلامية رسالة الله فى الأرض ، ودينه للناس أجمعين ، نزل بها الوحى الأمين على رسول الله محمد ﷺ ، وقد ضمن الله حفظ هذه الدعوة بحفظ كتابها ، وجعلها سبحانه وتعالى خاتمة لسائر الرسالات السابقة ، وشاملة لجميع الناس فى زمانها وفى كل الأزمان إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

ثانياً : حاجة الإنسان إليها :

خلق الله الإنسان فى أحسن تقويم ، وركبه فى أحسن صورة ، وفضله على كثير ممن خلق تفضيلا ، كرمه بالعقل ليميز به الحسن من القبيح ، والخير من الشر ، والحق من الباطل ، ولكن العقول وحدها لا تستقل بإدراك المصالح الدنيوية فضلا عن الأخروية ، ولا تهدى وحدها إلى تمييز الخير من الشر والمعروف من المنكر »[1] .

ذلك لأن العقل مهما سما فى تفكيره وحاول التزام القصد فى تصوره وأحكامه لا يمكن أن يكون من القوة والسداد فى كل شخص على السواء ، فلابد من التفاوت فى هذه الإدراكات ، ولابد من التفاوت فى المواصفات التى يصفها كل عاقل ، فقد يستحسن هذا ما يستقبحه ذلك ، وقد يرى هذا من الصدق والصواب فى التصور مالا يراه آخر ، فلأى عقل تكون القيادة؟ ولأى فرد يرجع فى تصحيح المفاهيم ، وإستقامة السلوك ؟

كما أن العقول ليست دائماً على صواب فيما تراه فهى عرضة للخلل بطغيان الهوى والشهوة وتسلط الغرائز التى هى جزء من مقومات الشخصية ، وطبيعة الإنسانية المزدوجة قد تخلص إلى الخير والحق إن بعدت أو تخلصت من أسر الهوى وتحكم الغريزة ، وكثيراً ما تبعد عن الجادة إن استسلمت لهذا السلطان ، والواقع شاهد بصدق ذلك ، فكم من أمور وضعت ولبست لباس السداد فإذا هى بعد مرور الزمن يظهر خطؤها ومجانبتها للصواب إما لقصر فى الوسائل وإما لنقص فى الظروف الملائمة ، وإما للانسياق إلى الهوى الكامن .

---

(١) هداية المرشدين ص ١٨ ، على محفوظ . نشر المكتبة المحمودية التجارية .

وإن اهتدت العقول البشرية واستطاعت أن تصل إلى الصواب فيما تراه فلن يكون ذلك لكل ما يحرص عليه الإنسان ويحقق له السعادة الكاملة ، فإن الأمور المغيبة الأخرى التى لا تتناولها قدرة الإنسان المحدودة تبقى دون أن يكون لها من الحساب ما يكون للأمور الحاضرة المعروفة .

ولما كانت العقول قاصرة عن إدراك مصالحها فى هذه الحياة ومابعدها وعاجزة عن الاطلاع على الحقائق ، وعرضة لتغلب الأهواء والشهوات وما إليها من الرذائل النفسية ، وكان من طباعها الاختلاف فى المدارك والميول ، لما كانت كذلك كان لا بد من قيادة رشيدة حكيمة يدين لها الجميع بالطاعة والثقة ، وما هذه القيادة إلا قيادة الرسل الذين لاينطقون عن الهوى يبلغون الناس هدى الله وبلاغه الذى فيه سعادتهم ، ويحذرونهم من السقوط فى مهاوى الشرور والشقاء .

ثالثاً : ضرورة تبليغها :

ولما كان الإنسان فى حاجة إلى دعوة الله تعالى فى القديم والحديث ، أوجب الله تبليغها على كل من يصطفيهم للقيام بهذا الأمر الخطير لأن الدعوة لا يمكن أن تصل بذاتها إلى الناس دون أن يكون هناك من يحمل أمانة البلاغ إلى الناس .

فالدعوة إلى الله حياة الأديان ، فما قام دين ولاثبت مبدأ إلا بالدعوة إليه ، وما تداعت ملة ولا درست بعد رفعة ، ولا تلاشت شرعة بعد قوة إلا بترك الدعوة إليها ، حتى المذاهب الباطلة تنمو بالدعوة إليها ، وتقوى ، والمذاهب الحقة بإهمال الدعوة تتضاءل وتزول ، ولو كان الحق يقوم بنفسه وينشر بذاته لما فرضت الدعوة إليه ، ولما كانت هناك حاجة إلى إرسال الأنبياء إلى الخلق مبشرين ومنذرين ، ولا إلى العلماء العاملين

والمرشدين الناصحين ، ولما كانت الدعوة إلى الله هى أحسن القول ، ولما أمر الله نبيه أن ينبه إلى أن طريقته ومن كان على شرعته هى الدعوة إلى الله على بصيرة قال تعالى « قل هذه سبيلى أدعوا إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنى وسبحان الله وما أنا من المشركين »[1] .

وهذه الآية تدل على أربعة أمور :

الأول : أن دعوة المؤمنين من أتباع النبى ﷺ واجبة ، وأن من تخاذل عنها لا يعد تابعاً للنبى ﷺ .

الثانى : أن تكليف النبى ﷺ بتبليغ رسالة ربه تكليف لأمته ، لا يتخلى عنه مؤمن ، ولا يتركه أمين .

الثالث : أن يكون الداعى له بصر بالأمور ، يأتيها من طرقها المسلوكة فى رفق ، لينافى دعوته ، يأتى الأمور من مصادرها وموارداها مؤمناً بها على بينة من أمرها ، لاتأخذه فى الحق هوادة وليس للباطل عنده إرادة .

الرابع : أن الإيمان وحده لا يكفى فى اتباع النبى ﷺ ، بل لا بد لكمال الاتباع من الدعوة ، فمن اهتدى من بعد البيان فلنفسه ، ومن ضل فإنما يضل عليها وما الله يريد ظلماً للعباد[2] .

رابعاً : الجهاد فى اللغة :

والجهاد فى اللغة : مشتق من الجهد بالضم أو الفتح ، وهو الوسع

---

(١) سورة يوسف آية ١٠٨

(٢) بحوث فى الدعوة الإسلامية ـ الأزهر الشريف ـ اللجنة العليا للاحتفال بالعيد الألفى للأزهر ١٤٠٣ هـ ـ ١٩٨٣ م ط الشركة المصرية للطباعة والنشر .

والطاقة ، ومنه قوله تعالى « والذين لايجدون إلاجهدهم »(١) وقد يستعمل بمعنى النهاية والغاية من جهد فى الأمر جهدا إذا طلب حتى بلغ غايته فى الطلب ، ومنه قوله تعالى : « وأقسموا بالله جهد أيمانهم »(٢) .

وحول هذا المعنى قال ابن تيمية : الجهاد حقيقة الاجتهاد فى حصول مايحبه الله من الإيمان والعمل الصالح ، ومن دفع مايبغض الله من الكفر والفسوق والعصيان »(٣) .

وقال الجرجانى : « الجهاد هو الدعاء إلى الدين الحق »(٤) .

وجاهد العدو جهاداً ومجاهدة قاتله ، والجهاد استفراغ الوسع فى محاربة الأعداء(٥) .

خامساً : الجهاد فى عرف الإسلام :

يطلق الجهاد فى نصوص الإسلام ويراد به أحد معنيين عام أوخاص .

المعنى العام للجهاد :

والمعنى العام للجهاد يقترب من المعنى اللغوى الذى هو بذل الوسع واستفراغ الطاقة فى مدافعة الأعداء . مع ملاحظة القيد الذى قيده به

(١) سورة التوبة آية ٧٩ .
(٢) سورة الأنعام آية ١٠٩ .
(٣) العبودية — ابن تيمية .
(٤) التعريفات — الجرجانى — القاهرة ١٣٥٧هـ — ١٩٣٨ م .
(٥) لسان العرب — ابن منظور مادة جهد — ص ٧١٠ . ط . دار المعارف .

الإسلام وهو بأن يكون فى سبيل الله تعالى ، ومن أجل إعلاء كلمته ، وتحقيق مطلبه سبحانه فى حياة الإنسان والجهاد بهذا المعنى يكون مشتملا على جهاد النفس وأهوائها ، وجهاد الشيطان ، وجهاد الكفار ، وجهاد المنافقين ، ويدخل فى هذا المعنى للجهاد جميع الأوضاع والأحوال التى يقسر المؤمن عليها نفسه للالتزام بتوجيهات الإسلام وأوامر الله تعالى ، والابتعاد عن معصيته سبحانه ، وجميع الوسائل التى تتخذ لجعل الناس على ذلك الالتزام ، وكذلك كل جهد يبذل للمحافظة على تلك الأوضاع وإن المتأمل لجوانب الإسلام ليلحظ بلا جهد أن الجهاد مقصود من وراء كل عبادة ، ومستهدف كل خلق ، ومبتغى كل توجيه وأدب من آدابه ، كما أنه مرام كل ضابط من ضوابطه وتشريع من تشريعاته ، فالصلاة والصيام والحج والزكاة والصدق والبر والصبر والعفو والصفح والكرم والطاعة فى المعروف والتوبة والمراقبة والعفاف والقناعة والوفاء والوقار والكف عن أضدادها ، كل هذه صور من الجهاد وكذا النصيحة لولى الأمر ، والصدع بالحق فى وجه الحاكم الظالم من أفضل صور الجهاد كما يقول ﷺ : « أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر »(١) .

كما أن إقامة شريعة الله كاملة عبادة ومعاملة وحدوداً وتعزيراً جهاد كبير لدرء الفساد وردع الإجرام والانحراف ، وبهذا المعنى العام للجهاد وردت آيات عديدة من الذكر الحكيم ، من ذلك قوله تعالى « وجاهدهم

(١) رواه أبو داود وابن ماجه عن أبى سعيد الخدرى مرفوعا / كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس إسماعيل بن محمد العجلونى فى الجراحى ج ١ ص ١٥٣ .

به جهاداً كبيراً »[1] والمقصود فى هذه الآية كما قال المفسرون الجهاد بالقرآن بما فيه من القوة والسلطان والتأثير العميق والبيان الوافى للحقائق والقيم والحكم .

وفى سورة العنكبوت حيث يعلم الله عباده المؤمنين دروساً بليغة فى جهاد الفتنة بأسلحة الصبر والثبات والثقة بالله ودينه ، يقول تعالى « ومن جاهد فإنما يجاهد لنفسه إن الله لغنى عن العالمين »[2] .

قال ابن كثير فى تفسير هذه الآية : هى كقوله تعالى « من عمل صالحاً فلنفسه » فقد فسر الجهاد بالعمل ثم نقل عن الحسن البصرى رحمه الله أنه قال : « إن الرجل ليجاهد وما ضرب يوماً من الدهر بسيف »[3] .

وفى السورة نفسها وهى مكية « والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا »[4] فالمقصود فى هذه الآية الكريمة أن الذين صبروا على فتنة النفس وفتنة الناس فجزاؤهم عند الله التثبت على الطريق والهدى ، وقد فسرها بعض العلماء بأن الذين يعملون بما يعلمون يهديهم الله لما لا يعلمون »[5] وغير ذلك كثير من الآيات التى تدل دلالة واضحة على الجهاد بمعناه العام .

---

(١) سورة الفرقان آية ٥٢

(٢) سورة العنكبوت آية ٦

(٣) تفسير القرآن العظيم / ابن كثير — جـ٣ ص ٤٠٤ نشر مكتبة التراث الإسلامى سوريا . حلب .

(٤) سورة العنكبوت آية ٦٩

(٥) فى ظلال القرآن/سيد قطب جـ ٦ ص ١٧٢ ، بيروت ١٤٠٥هـ — ١٩٨٥ م .

الجهاد بمعناه الخاص :

أما الجهاد بمعناه الخاص فهو ما كثر فيه الجهد وزاد فيه البذل والتضحية ، لذلك كان أهم أحواله وأخطرها ما كان فيه تضحية بالنفس أو تعريض لها بالقتل فى سبيل الله تعالى .

ولخطورة هذا النوع من الجهاد أبرز فى كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ إبرازاً شديداً ، وخص بالذكر والحث عليه أكثر من غيره ، وكان من مظاهر هذه العناية أن خص بعنوان الجهاد لظهور معنى المجاهدة والمعاناة فيه ، ولعظم مافيه من البذل والتضحية لأن مايبذل فيه هو النفس فإذا قدمت فى سبيل الله فقد قدم صاحبها جميع ما أوتى من قوة ، فيكون هذا النوع من البذل متضمناً لجميع أنواع التضحية ، وإن أكثر ما أطلق عليه الجهاد فى القرآن الكريم هو هذا النوع .

ومن الآيات القرآنية التى تدل على هذا النوع قوله تعالى « انفروا خفافاً وثقالا وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم فى سبيل الله »[1] ، وقوله : لا يستوى القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر والمجاهدون فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة وكلا وعد الله الحسنى وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجراً عظيما[2] فى هذه الآية الكريمة مقابلة ومفاضلة بين هذا النوع من الجهاد وبين الأنواع الأخرى التى تدخل فى عموم معنى الجهاد ، ولذلك دخلوا فى جملة من وعدهم الله الحسنى ، ولكن المقاتلين فضلهم الله على أولئك بما زادوا عليهم من البذل والتضحية حتى خصوا باسم المجاهدين دون أولئك .

---

(١) سورة التوبة آية ٤١ (٢) سورة النساء آية ٩٥

ومثل هذه المفاضلة والمقابلة فيما رواه أبو هريرة رضى الله عنه قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال دلنى على عمل يعدل الجهاد. قال «هل تستطيع إذا خرج المجاهد أن تدخل مسجدك فتقوم ولا تفتر، وتصوم ولا تفطر» قال ومن يستطيع ذلك[1].

وهناك طائفة كبيرة من آيات الذكر الحكيم تبين المنزلة العظيمة لهذا النوع من الجهاد، ويلاحظ أن هذه المنزلة تتفاوت فى أجرها عند الله عز وجل بتفاوت مافيها من التضحية ولكن رأسها جميعاً هو الاشتراك فى مقاتلة أعداء الإسلام وهو المقصود فى كثير من الآيات كالذى فى قوله تعالى «إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعداً عليه حقاً فى التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم»[2].

ففى هذه الآية نص على المنزلة العظيمة لهذا النوع من الجهاد، ولما كانت هذه المنزلة خاصة بمن يقاتل فعلا فيقتل ويقتل كانت تسميته باسمه الخاص به.

وكذا فى قوله تعالى «كتب عليكم القتال وهو كره لكم»[3] فسمى هذا النوع من الجهاد فى هذا المقام باسمه الخاص به فى اللغة حتى يعلم أن بذل النفس غدا فرضاً على المؤمنين بعد أن لم يكن كذلك فى بداية

(١) فتح البارى بشرح صحيح البخارى / ابن حجر العسقلانى جـ٦ ص ٤ بيروت ١٣٧٩ هـ.

(٢) سورة التوبة آية ١١١

(٣) سورة البقرة آية ٢١٦

الدعوة، وبعد أن كانت الفرضية مقتصرة فى أول الأمر على أنواع الجهاد الأخرى، جاء النص على الجهاد بعينه ليلتحق بغيره من أنواع الجهاد فى حكم الفرضية، وليكون النص محكماً لا مجال للتأويل فيه، وحتى لا يظن ظان لو ذكر مجرد لفظ الجهاد أن المطلوب فقط هو بذل الجهد ولو لم يكن فيه تضحيه بالنفس[1].

ويظهر هذا المعنى أيضاً فى قوله تعالى «ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون، فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون»[2] فهذه الحياة البرزخية الكريمة خاصه بنوع من أنواع الشهداء وهم الذين يقاتلون فى سبيل الله تعالى مع أن الأحاديث الصحيحة دلت على أن هناك أصنافاً أخرى من الشهداء لهم أجر عند ربهم، ولكن لا يصلون إلى هذه الدرجة التى يصل إليها شهداء المعركة.

وبناء على ما تقدم فإن الجهاد بمعناه الخاص هو بذل الجهد والطاقة بالقتال فى سبيل الله تعالى. ويدخل فى معناه كل جهد مباشر يبذل من أجل هذا القتال سواء كان سابقاً عليه أم لاحقاً له، فيدخل فيه الإعداد والتمرين والحراسة والمرابطة وغير ذلك من الأنواع التمهيدية أو التابعة للقتال وإن كانت هذه الأنواع تتفاوت عند الله عز وجل بمقدار مافيها من تضحية.

وحكم الجهاد الخاص فرض كفايه إذا قام به البعض سقط عن الباقين،

(١) حقيقة الجهاد فى الإسلام د / محمد نعيم ياسين ص ٤٢ الكويت ١٤٠٤ هـ — ١٩٨٤ م.

(٢) سورة آل عمران ١٦٩، ١٧٠

وذلك لقوله تعالى « وما كان المؤمنون لينفروا كافة فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون »[١] غير أنه يتعين على من عينه الإمام فيصبح فرض عين فى حقه ، لقوله ﷺ « وإذا استنفرتم فانفروا »[٢] ويصبح فرض عين أيضا ، إذا داهم العدو بلدا فإنه يتعين على أهلها حتى النساء منهم مدافعته وقتاله[٣] .

من أجل هذا كان الجهاد عنصرا أصيلا فى الإسلام بعقيدته ونظامه لا مجرد إجراء طارىء يقصد به دفع عدوان واقع ، وليس أدل على هذه الحقيقة من ذلك الخير الكبير والذكر الكثير الذى حظى به هذا العنصر فى كتاب الله الكريم وسنة رسوله ﷺ ، والذى يدل على أن الجهاد لا تقل أهميته فى دين الإسلام عن الأركان الخمسة التى يقوم عليها بناؤه ، ولقد كان الجهاد من الأمور التى كان يبايع الرسول عليها من يريد الدخول فى الإسلام ويقرنه بالشهادتين وبقية أركان الإسلام[٤] .

---

(١) سورة التوبة آية ١٢٢

(٢) رواه مسلم والترمذى والنسائى وأحمد ، جامع الأحاديث للسيوطى حـ ٧ صـ ٣٩٤

(٣) أحكام القرآن / أبو بكر الجصاص حـ ٣ صـ ١٥٢ القاهرة سنة ١٣٤٧ هـ .

(٤) أحكام القرآن / أبو بكر الجصاص حـ ٣ صـ ١٤٢ .

سادسا : أسباب مشروعية القتال :

مما لا شك فيه أن الإسلام قام على الحجة والبرهان ، وظهر على كل الأديان بقوة البيان وإعجاز القرآن ، ولم يقم بالسيف والقوة والقهر والجبروت « لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى »[١] ، ولم يسل السيف إلا بعد اعتداء الأعداء وبغى الأشقياء ووقوفهم حجر عثرة فى طريق الدعوة إلى الدين الحق والصد عن سبيل الله وصراطه المستقيم ، فالإسلام ليس دين استسلام ، وليست الفضيلة فى الإسلام فى الركون إلى الدعة ، وإنما الفضيلة فى الإسلام هى رد الإعتداء ، ومنع الخضوع للأقوياء ، ولذلك شرع القتال لمنع الفساد فى الأرض ، إذ أنه لو ترك الأشرار يعيثون فساداً من غير رادع يردعهم ولا مانع يمنعهم لعم الفساد فى البر والبحر . ورب تسامح يحوى فى ذاته أكبر الجرائم فتكا بالجماعة الإنسانية ، قال تعالى « ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين »[٢] .

والمعروف أنه لابد لكل دعوة من الدعوات من قوة تحميها وترد عنها أذى المعتدين ، والإسلام وهو دعوة الخير لابد له من قوة تحميه حتى لا يذهب الخير ولا يبقى إلا الشر ، ولهذا أذن الله بالقتال دفاعا عن الفضيلة . قال تعالى « أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير »[٣] .

---

(١) سورة البقرة آية ٢٥٦

(٢) سورة البقرة آية ٢٥١

(٣) سورة الحج ٣٩

لهذا فقد شرع القتال للأسباب التالية :

أولا : رد الاعتداء على النفس .

قال تعالى « وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين »[1] وقال ﷺ « من قتل دون ماله فهو شهيد ، ومن قتل دون دمه فهو شهيد ، ومن قتل دون دينه فهو شهيد »[2] .

ثانيا تأمين حرية الاعتقاد الدينى لدى المؤمنين حتى لا يفتنهم الكفار عن دينهم ، قال تعالى « وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله »[3] فمن حق البشرية أن تترك بعد وصول الدعوة إليهم أحرارا مختارين ، لا يجبرهم على الدخول فيها أحد ، ولا يكرههم على اعتناقها بشر ، ومن حقها كذلك ألا يحول بينها وبين الدعوة حائل ، وألا تصدم عنها قوة لأنهم ربما يؤمنون بها ، فإذا حدث أن سلطة غاشمة وقفت فى طريقها ومنعتها عن الوصول إلى الناس كان لابد من مقاومتها تحقيقا لقوله تعالى: « وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة » وتكون هذه المقاومة لا بغرض فرض الإسلام فرضا ولكن لمنحهم حرية المعرفة .

إن الجهاد حينئذ واجب مقدس لرد الفتنة ودرء العدوان وإعلاء كلمة الله .

---

(١) سورة البقرة آية ١٩٠

(٢) تكملة الحديث « ومن قتل دون أهله فهو شهيد » رواه أبو داود والنسائى والترمذى وابن ماجة وقال حديث حسن صحيح — الترغيب والترهيب / الحافظ المنذرى جـ ٢ صـ ٢٠٤ نشر مكتبة شباب الأزهر .

(٣) سورة البقرة آية ١٩٣

ثالثاً : حماية الدعوة الإسلامية حتى تصل إلى الناس جميعاً ويتحدد موقفهم منها تحديدا ظاهراً ، وذلك لأن الإسلام رسالة دينية تضمنت كل ما فيه صلاح المجتمع فى كل نواحيه سواء منها ما يتعلق بالأفراد والمجتمعات وصدق الله إذ يقول « وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا ولكن أكثر الناس لا يعلمون »[1] ومن هنا كان لابد أن تزول كل عقبة من طريق الدعوة والدعاة تمنع إبلاغها ، كما أنه لابد أن يعرف كل فرد وكل أمة منها بعد هذا البلاغ ، وعلى ضوء هذا التحديد تتحدد معاملة الإسلام وأهله للناس جميعاً ، فالمؤمنون إخوان ، والمعاهدون لهم عهدهم ، وأهل الذمة يوفى لهم بذمتهم ، والأعداء المحاربون ومن يخشى خيانتهم تبذ إليهم ، فإن عدلوا عن خصومتهم وإلا حوربوا لا إكراها لهم على الدخول فى الإسلام ، وإنما جزاء اعتدائهم حتى لا يصبحوا عقبة فى طريق دعوة الحق أو مصدر تهديد وخيانة لأهلها ، والنصوص القرآنية ناطقة بذلك « وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء إن الله لا يحب الخائنين »[2] « قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون »[3] .

رابعا : إغاثة المظلومين من المؤمنين حيثما حلوا فى أية بقعة من بقاع الأرض ، قال تعالى « والذين آمنوا ولم يهاجروا ما لكم من ولايتهم من شىء حتى يهاجروا وإن استنصروكم فى الدين فعليكم النصر إلا على قوم بينكم وبينهم ميثاق »[4] .

---

(١) سورة سبأ آية ٢٨

(٢) سورة الأنفال آية ٥٨ .

(٣) سورة التوبة آية ٢٩

(٤) سورة الأنفال آية ٧٢

خامسا : تأديب ناكثى العهد من المعاهدين وكذلك تأديب الفئة الباغية حتى تعود إلى أمر الله ، قال تعالى « وإن نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم وطعنوا فى دينكم فقاتلوا أئمة الكفر إنهم لا أيمان لهم لعلهم ينتهون » (١) .

وقال تعالى « الذين عاهدت منهم ثم ينقضون عهدهم فى كل مرة وهم لا يتقون ، فإما تثقفنهم فى الحرب فشردبهم من خلفهم لعلهم يذكرون ، وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء إن الله لا يحب الخائنين » .

فالآيات توضح أن السبب فى القتال هو نقض العهد مرة بعد أخرى فأمر الله نبيه أن يجاهد هؤلاء ويوقع بهم أشد النكال ليكونوا عبرة لغيرهم من المشركين ، فلا ينقضوا له عهدا ، ولا يعلنوا عليه حربا ، فإن مالوا إلى المسالمة وجب ألا يقاتلوا ، قال تعالى : — « وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله (٢) » « وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تفىء إلى أمر الله فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا إن الله يحب المقسطين » (٣) .

تلك هى أهم الأغراض التى من أجلها شرع القتال فى الإسلام وكلها بعيدة عن إكراه أحد على العقيدة ، وصريحة فى كونه شرع دفاعا عن النفس وتأمينا لحرية العقيدة وحماية لطريق الدعوة ، وتأديبا لناكثى العهد والبائمين ، ونصرة للمظلومين .

(١) سورة التوبة آية ١٢
(٢) سورة الأنفال آية ٦١
(٣) سورة الحجرات آية ٩

سابعا : السرايا والغزوات ودورها فى نشر الدعوة الإسلامية .

معنى السرية :

السرية : طائفة مختارة من الجيش يرسلها الإمام لقتال أعدائه أو إرهابهم أو استكشاف أحوالهم أو غير ذلك من المقاصد التى تعود بالخير على المسلمين .

وسميت سرية لأنها تسرى خفية أى تتحرك فى تكتم وتستر .

وتبدأ من خمسة أشخاص وقد تصل إلى أربعمائة .

وقال صاحب لسان العرب : السرية قطعة من الجيش ما بين خمسة إلى ثلثمائة وقيل هى من الخيل نحو أربعمائة ، ويقال : وخير السرايا أربعمائة رجل ، وسميت سريه لأنها تسرى ليلا فى خفية لئلا يعلم بهم الأعداء فيحذروا أو يمتنعوا (١) .

وقال الحافظ ابن حجر : والسرية قطعة من الجيش تخرج منه وتعود إليه وهى من مائة إلى خمسمائة فما زاد على خمسمائة يقال له منسر ، فإن زاد على الثمانمائة يسمى جيشا ، فإن زاد على أربعة آلاف يسمى جحفلا فإن زاد فجيش جرار ، والخميس الجيش العظيم ، وما افترق من السرية يسمى بعثا (٢) .

وقد تطلق السرية على العدد الذى يقل عن الخمسة عند بعض العلماء .

(١) ص ٢٠٠٤ . ط دار المعارف
(٢) فتح البارى حـ ٩ ص ١١٨ ط . الحلبى

قال الإمام محمد بن الحسن الشيبانى : ولا بأس للإمام أن يبعث الرجل الواحد سرية أو الاثنين أو الثلاثة إذا كان محتملا لذلك لماروى من أنه ﷺ بعث حذيفة بن اليمان فى بعض أيام الخندق سرية وحده ، وبعث عبد الله بن أنيس سرية وحده ، وبعث ابن مسعود وخبابا سرية .

والذى روى من أن النبى ﷺ نهى أن تبعث سرية دون ثلاثة نفر تأويله من وجهين : إما أن يكون ذلك على وجه الإشفاق بالمسلمين من غير أن يكون ذلك سكروها فى الدين ، وإما أن يكون المراد بيان أنه من الأفضل ألا يخرج أقل من ثلاثة ليتمكنوا من أداء صلاة الجماعة على هيئتها بأن يتقدم أحدهم ويصطف الاثنان خلفه [1] .

بين الغزوة والسرية ؟

الذى اصطلح عليه جمهور العلماء وأهل السير أن كل عسكر حضره النبى ﷺ بنفسه الكريمة ، فإنه يسمى غزوة ، ومالم يحضره بل اختار بعضا من أصحابه فأرسلهم إلى أعدائه دون أن يكون معهم يسمى سرية أو بعثا .

عدد الغزوات والسرايا :

للعلماء أقوال متعددة فى عدد الغزوات والسرايا التى تمت فى العهد النبوى والذى عليه أئمة المغازى كابن إسحاق وابن سعد والواقدى وغيرهم أن الغزوات التى حضرها النبى ﷺ بنفسه تبلغ سبعا وعشرين غزوة [2] .

(١) شرح السير الكبير — محمد بن الحسن الشيبانى حـ ١ صـ ٦٩ تحقيق د / صلاح النجار .

(٢) السيرة النبوية — ابن هشام جـ ٤ صـ ٢٨٠ . ط المكتبة التجارية

ويرى بعض العلماء أن عدد غزواته يبلغ ستا وعشرين ، وقيل خمسا وعشرين ، وقيل أربعا وعشرين ، وقيل إحدى وعشرين وقيل تسع عشرة قال صاحب المواهب : ويمكن الجمع على نحو ما قال السهيلى بأن من عدها دون سبع وعشرين نظر إلى شدة قرب بعض الغزوات من غيرها فجمع بين غزوتين وعدها واحدة فضم لغزوة الأبواء غزوة بواط لقربهما ، إذ الأبواء فى صفر وبواط فى ربيع الأول ، وضم حمراء الأسد لأحد لكونها صبيحتها ، وضم قريظة للخندق لكونها ناشئة عنها وضم وادى القرى لخيبر لوقوعها فى رجوعه من خيبر قبل دخول المدينة ، وضم الطائف لحنين لانصرافه منها [1] .

أما عدد البعوث والسرايا التى أرسلها النبى ﷺ فى حياته فيرى ابن سعد فى طبقاته أنها تبلغ سبعا وأربعين .

الحكمة فى إرسال البعوث والسرايا :

مما هو معلوم أن النبى ﷺ لم يرسل بعوثه وسراياه إلا بعد أن شرع الله له القتال فى سبيله من أجل إعلاء كلمته ورفع الظلم الذى نزل بالمسلمين من أعدائهم ، وكان هذا الإذن بعد تأسيس الدولة الإسلامية الفتية بالمدينة على العقيدة السليمة والأخوة الصادقة ، وإيثار الموت فى سبيل الله على كل مغريات الحياة .

وقد بادر النبى ﷺ بإرسال بعوثه وسراياه بعد ذلك إلى مختلف الأماكن لمقاصد سامية وحكم عالية وأهداف نبيلة من أهمها مايلى :

(١) شرح المواهب — الزرقانى حـ ١ صـ ٣٨٨ ط . المطبعة الأزهرية سنة ١٣٢٠ هـ .

أولا : مطاردة القوافل التجارية التى يملكها مشركو مكة ومصادرتها لصالح المسلمين عند ذهابها إلى بلاد الشام أو عودتها منها إذ فى ذلك شفاء لصدور المؤمنين الذين كانوا يعيشون فى بلدهم مكة آمنين مطمئنين فأخرجوا منها بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ، وفيه أيضا تعويض لهم عما فقدوه من أموال انتهبها المشركون منهم ظلما وعدوانا ، ولعل هذا هو السر فى أن جميع السرايا التى بعثها النبى قبل غزوة بدر للإغارة على تجارة قريش كان جميع أفرادها من المهاجرين دون الأنصار ، لأن المهاجرين هم الذين اكتووا بنار قريش وظلمها وبطشها ، أما الأنصار فقد كانوا عاهدوا النبى ﷺ فى بيعة العقبة على نصرته إذا ماداهم المشركون المدينة .

ثانيا : إفهام قريش بأن عهود الضعف التى كان المسلمون يعيشونها فى مكة قد ولت إلى غير رجعة ، وأنهم أقاموا فى المدينة دولة قوية عزيزة تستطيع أن ترهب قريشا وأن تزلزل كيانها وأن تلحق بها الأضرار الفادحة ، فعلى قريش أن تثوب إلى رشدها وأن تتفاهم مع المسلمين تفاهما يقى الطرفين شرور العداوة والبغضاء ويكفل للدعوة الإسلامية أن تأخذ مكانها تحت الشمس بحرية وأمان وانطلاق ، ويبيح للمسلمين فى كل مكان أن يدخلوا مكة وأن يطوفوا بالبيت العتيق ، وعليها أيضا أن توقن بأنها إذا لم تفعل ذلك بل تمادت فى غرورها وعنادها فإن سرايا المسلمين قادرة على أن تقتص من كل باغ قصاصا يخيفه ويروعه ، ولقد بدأت قريش بعد اعتراض السرايا لقوافلها تقدر قوة المسلمين حق قدرها وتسلك بتجارتها طرقا أخرى بعيدة عن المدينة حتى لا تتعرض لتهديد المسلمين .

ثالثا : إشعار كل مناوىء للدعوة الإسلامية من اليهود والمنافقين وأعراب البادية الضاربين حول المدينة وغيرهم من الطوائف التى تسير فى

ركاب قريش أو تؤذى المسلمين باللسان أو اليد بأن أتباع الدعوة الإسلامية قادرون على إرهاب أعداء الله وأعدائهم وفى إمكانهم أن يزهقوا روح كل إنسان يتطاول على عقيدتهم أو ينتقص من شأن دينهم .

ولقد خرست الألسن التى كانت تهون من شأن المسلمين وذلت نفوس اليهود والمنافقين وأصحاب القلوب المريضة بعد أن رأوا سرايا رسول الله تقتص من الذين يحاربون الله ورسوله فتزهق أرواحهم فى عقر دارهم كما حدث بالنسبة لكعب بن الأشرف ، وأبى عفك اليهودى ، وعصماء بنت مروان ، وسفيان الهذلى ، وابن أبى الحقيق ، وأسير بن رزام وغيرهم ؟ .

رابعا : التعرف على أحوال الأعداء ورصد تحركاتهم واستكشاف ميولهم واتجاهاتهم ، وبذلك يكون المسلمون قد فهموا طبيعة أعدائهم وماهم عليه من قوة أو ضعف فيتمكنوا من إعداد السلاح الذى يكفل لهم النصر عليهم .

ولقد كان هذا المقصد واضحا فى وصايا رسول الله ﷺ لبعض سراياه فعندما بعث عبدالله بن جحش للتعرض لعير قريش أعطاه كتابا مختوما وأمره ألا يفتحه إلا بعد مسيرة يومين ، وكان فيه إذا نظرت فى هذا فامض حتى تنزل نخلة بين مكة والطائف فترصد بها قريشا وتعلم لنا من أخبارهم ،

خامسا : تثبيت هيبة المسلمين فى نفوس أعدائهم ، وإدخال الوهن والفزع فى قلوبهم عن طريق تلك البعوث والسرايا التى كانت تشن الغارات على كل معتد أثيم . ، ولاشك أن هذا العمل الجرىء من جانب المسلمين يجعل أعداءهم يخشون بأسهم ويخضعون لإرادتهم ويقفون منهم موقف الضعيف من القوى ، وأعتقد أنه لولا هذه السرايا والبعوث التى أظهرت

قوة المسلمين وبطولتهم لطمع فيهم أعداؤهم ، وصدق الله إذ يقول « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم »[1] .

سادسا : دعوة الناس إلى الدين الحق وإرشادهم إلى مايسعدهم فى دينهم ودنياهم ، وقد كان هذا هو المقصد الأساسى لكل بعث أو سرية لرسول الله ، وما لجأت سراياه وبعوثه إلى القتال إلا بعد أن أبى الأعداء الاستجابة للهدى وأصروا على العناد والضلال ، ولقد كان ﷺ يوصى أفراد السرايا بما طبع عليه من الأخلاق السامية والآداب العالية ، فعندما خرج ليودع الجيش المتجه إلى مؤتة كان مما قاله لأفراده « أوصيكم بتقوى الله وبمن معكم من المسلمين خيرا ، اغزوا باسم الله فى سبيل الله من كفر بالله ، ولا تغدروا ، ولا تغلوا ، ولا تقتلوا وليدا ولا امرأة ولا كبيرا ولا فانيا ولا منعزلا فى صومعة ولا تقربوا نخلا ولا تقطعوا شجرة ولا تهدموا بناء »[2] .

وكانت السرايا والبعوث تخرج لمهام معينة لا تتجاوزها فهى لا تقاتل كل من يقابلها فى طريقها ، وإنما تقاتل فقط من أمرها النبى بقتاله .

أرسل النبى ﷺ عمر بن الخطاب على رأس ثلاثين رجلا لقتال هوازن ، وكان المسلمين مع دليل ليدلهم على ديار القوم ، فلما وصل عمر إليهم وجدهم قد هربوا من ديارهم ، وبعد أن يئس من العثور عليهم قفل راجعا إلى المدينة وفى الطريق قال الدليل لعمر ياعمر هل لك فى قتال جمع آخر من خثعم لتغنم منهم الكثير فقال له عمر إن رسول الله لم يأمرنى إلا بقتال هوازن فى أرضهم ولم يأمرنى بقتال غيرهم ولو أمرنى لفعلت .

(١) سورة الأنفال آية ٦٠

(٢) شرح المواهب حـ ٢ ص ٢٦٩

وهكذا نجد أن بعوث النبى وسراياه كان الهدف الأساس فيها نشر دين الله فى الأرض ، وإرشاد الناس إلى كل خير وفلاح ، وتأديب الضالين والغادرين الذين إن يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلا ، وإن يروا سبيل الغى يتخذوه سبيلا .

دور السرايا والغزوات فى النشر الدعوة

قامت السرايا والغزوات بدورهام فى إعلام الناس بدعوة محمد ﷺ فى الجزيرة العربية وخارجها ، ذلك لأن العرب كانت تتابع أخبار وقائعها وتسجلها فى ذاكرة رواتها وشعرائها ممن يتحدثون بأسماء القبائل فى الأسواق والأندية ، فلما هاجر النبى ﷺ إلى المدينة أشاع كفار قريش بين العرب أن المسلمين هربوا من مكة ، وأن دينهم مقضى عليه لا محالة ، وأن أتباع محمد بحالة من الضعف جعلتهم يفرون من مكة ، ويتركون ديارهم وأموالهم ، وتلك كلها دعاوى باطلة وافتراءات مغرضة هدفها النيل من الدعوة وصاحبها ، ومن هنا تبرز أهمية السرايا والغزوات كوسيلة للدعوة إلى الله ، فلقد قامت بالأمور التالية : —

أولا : أخبرت أهل مكة بشجاعة المسلمين وقوتهم ، وقامت بتفهيم العرب جميعا قدر محمد ودينه وأتباعه .

ثانيا : أبرزت روح الرجل المسلم بما يقوم به من تضحيات فى سبيل الإسلام وحبه لقاء الله ورجائه الاستشهاد فى سبيل الله ، وكان ذلك أمرا عجيبا دفع الكثيرين للتساؤل عن أمر هذه القوة التى أضفاها الدين على أتباعه .

ثالثا : كان الجهاد فى سبيل الله سببا فى تشريع كثير من الأحكام كصلاة الخوف ، وتوزيع الفىء والغنائم .

رابعاً : وضع الجهاد المسلمين أمام واجب مفروض ، وهو واجب الدعوة إلى الله وقتال من يقاتل أتباع الدعوة أو يقف فى طريقها لأن الحق إذا لم تسنده القوة تغلب الباطل عليه ، بل إن الحق القوى يجعل الناس ينظرون إليه بدهشة وإعجاب .

خامساً : إن الجهاد فى سبيل الله يبين إيجابية الإسلام فى تحقيق الأهداف النبيلة بدون إكراه أو إجبار لأحد .(١)

وذلك واضح من خلال تشريعه ووقائعه .

أما تشريعه : — فقد مر بمراحل متعددة تبعث المسلمين من ضعفهم وقوتهم ، ولم تخرج أى مرحلة عن مبدأ الدفاع .

ثامنا مراحل تشريع الجهاد

المرحلة الأولى :

وكانت قبل الهجرة حيث كان المسلمون ضعفاء لا يملكون رد الإيذاء فكان جهادهم فى هذه المرحلة الإدلاء بالحجة والبرهان والصبر على أذى المشركين مع المحافظة على الدين .

يقول ابن كثير : إن المسلمين لما كانوا بمكة كان المشركون أكثر عدوا منهم فلو أمر المسلمون بقتالهم وهم أقل من العشر لشق عليهم .(٢)

لهذا كانت الآيات تدعوا إلى الصبر والتحمل وعدم الركون إلى الضعف

(١) الدعوة الإسلامية — أصولها ووسائلها د/ أحمد غلوش ص٢٦١ دار الكتاب المصرى بالقاهرة — دار الكتاب اللبنانى بيروت .

(٢) تفسير القرآن العظيم / ابن كثير ج٣ ص٢٢٥

والاستكانه قال تعالى : « واصبر على مايقولون واهجرهم هجرا جميلا »(١) وقال « خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين »(٢) وقال « فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل ولا تستعجل لهم »(٣) وقال « واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا »(٤) ، وقال « واتبع مايوحى إليك واصبر حتى يحكم الله »(٥)

وظل الرسول ﷺ وأصحابه على ذلك حتى كانت الهجرة إلى المدينة وبعدها كان الإذن بالقتال .

المرحلة الثانية

مرحلة الإذن بالقتال . وفيها يقول سبحانه « أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير »(٦) فقد بينت الآية الكريمة أن سبب الإذن فى القتال هو الظلم الواقع على الرسول وصحبه من هؤلاء الذين أخرجوهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ، ففهم من ذلك أن السكوت عن الدفاع فى الفترة المكية لم يكن مبدأ وإنما كان ضرورة عاشها المسلمون لضعفهم وقلة حيلتهم ، قال العوفى عن ابن عباس : نزلت الآية فى محمد وأصحابه حين أخرجوا من مكة ، وقال مجاهد والضحاك وغير واحد من السلف كابن عباس ومجاهد وعروة بن الزبير وغيرهم ، هذه أول آية نزلت فى الجهاد

(١) سورة المزمل آية ١٠
(٢) سورة الأعراف آية ١٩٩
(٣) سورة الأحقاف آية ٣٥
(٤) سورة الطور آية ٤٨
(٥) سورة يونس آية ١٠٩
(٦) سورة الحج آية ٣٩

قال ابن عباس : لما أخرج النبي من مكة قال أبو بكر أخرجوا نبيهم إنا لله وإنا إليه راجعون ليهلكن ، قال : فأنزل الله عز وجل « أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا ... الآية قال أبو بكر فعرفت أنه سيكون قتال ، فشرع الجهاد فى الوقت الأليق به لأنهم لما كانوا بمكة كان المشركون أكثر عدداً فلو أمر المسلمون وهم أقل من العشر بقتال الباغين لشق عليهم »[1] .

ولما كانت النفوس البشرية بطبعها فيها ضعف فطرى وحب للحياة قد ينازعها الرغبة فى الجهاد والاستشهاد ولم يكف الإذن به فقط ، كما وأنه قد أسلمت جموع لم تذق مرارة الإخراج من الديار وإيذاء المشركين لها ، الأمر الذى يقوى فيها الرغبة فى الجهاد بمجرد الإذن ، لذلك أمر الله بجهاد المشركين المعتدين دون من يصدر منهم اعتداء تضييقا لدائرة القتال رفقا بالمسلمين وبذلك ابتدأت المرحلة الثالثة .

المرحلة الثالثة : الأمر بقتال من يقاتل المسلمين .

ويشير إلى هـــذه المرحلة قوله تعالى « وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين »[2] وهذه المرحلة لم تخرج هى الأخرى عن مبدأ الدفاع كما يستفاد من آيات تشريعها فى مثل قوله « ولا تعتدوا » وقد بدأت هذه المرحلة بعد غزوة بدر مباشرة حيث بدأت قريش الحرب العامة وأخذت تستعد للانتقام لهزيمتهم فى بدر .

جاء فى لباب النقول[3] : أنه لما أصيبت قريش يوم بدر ورجعوا إلى

(١) تفسير القرآن العظيم حـ٣ صـ٢٢٥
(٢) سورة البقرة آية ١٩٠
(٣) لباب النقول فى أسباب النزول / جلال الدين السيوطى جـ١ صـ١٢٥ ط . الحلبى

مكة مشى عبد الله بن أبى ربيعة ، وعكرمة بن أبى جهل ، وصفوان بن أمية فى رجال مع قريش أصيب آباؤهم وأبناؤهم فقابلوا أبا سفيان ومن كان فى تلك العير فى تجارة قريش فقالوا يا معشر قريش إن محمدا قد وتركم وقتل خياركم فأعينونا بهذا المال على حربه لعلنا ندرك منه ثأرا ففعلوا ، وكان الله مع المؤمنين فوجههم بعد بدر مباشرة إلى وجوب الاستعداد للحرب ، ولزوم الثبات فيها ، ثم كانت قمة المعية الإلهية أن وجه المسلمين إلى أن مرحلة الإذن المجرد قد انتهت لتبدأ مرحلة أوسع منها هى مرحلة فرضية القتال ، قال تعالى « قل للذين كفروا إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف وإن يعودوا فقد مضت سنة الأولين ، وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله فإن انتهوا فإن الله بما يعملون بصير »[1] .

المرحلة الرابعة :

مقابلة الأعداء بالأسلوب الذى يستخدمونه فى قتال المسلمين مادام لا يعارض مبدأ الخلق الإسلامى فإن قاتل الأعداء المسلمين كافة قاتلهم المسلمون كذلك وإن قاتلوهم بمجموعات مختلفة استخدم المسلمون الأسلوب الذى يتناسب مع ذلك مصداق ذلك قوله تعالى :

« وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة »[2] .

والقتال فى هذه المرحلة لا يعارض مبـــدأ الدفاع فالله يقول « كما يقاتلونكم » أى كما يجتمعون لحربكم إذا حاربوكم فاجتمعوا أنتم لهم أيضا إذا حاربتموهم ، وأيضا فإن المشركين هم الذين بدأوا فى العام الخامس الهجرى بالمقاتلة العامة ساعة أن تجمعو فى عدد هائل ضم قريشا

(١) سورة الأنفال آية ٣٩
(٢) سورة التوبة آيه ٣٦

وأحابيشها ومن تبعها من بنى كنانة وأهل تهامة ومعهم غطفان ومن تبعهم من أهل نجد يعاونهم يهود بنو قريظة .

يقول ابن إسحاق فى حديثه عن هذا التجمع : فخرجت قريش وقائدها أبو سفيان بن حرب وخرجت غطفان وقائدها عيينة بن حصن بن حذيفة من بدر فى بنى فزارة ، والحرث بن عوف فيمن تابعه من قومه أشجع ، وقد بلغ تجمع المشركين عشرة آلاف ، وكان أملهم القضاء على المسلمين أجمعين كما يوضحه قول حيى بن أخطب لكعب بن أسد القرظى عاهدنى القوم وعاقدونى على أن لا يبرحوا حتى نستأصل محمدا ومن معه ، فكان لزاما أمام هذه الاتجاهات فى غزوة الأحزاب التى وقعت فى الخامس من شوال فى العام الخامس من الهجرة .(١)

هذا التجمع الشامل أن يأمر الله المسلمين بالمقاتلة العامة لتبدأ المرحلة الرابعه .

هذا هو الواقع التشريعى للجهاد وهو يؤكد على أن سبب مشروعيته إنما كان دفاعا خالصا ، ولم يحدث أن كانت هناك موقعة واحدة لغير ذلك وبالوقوف على سبب كل غزوة من غزوات النبى ﷺ وكل سرية من سرياه . يتبين لنا ذلك بيانا لا يتطرق إليه شك ، ولا يتسع المقام لذكر أسباب الغزوات والسرايا جميعا ، فهذا يحتاج إلى مجلدات لذا أكتفى بالإشارة إلى أسباب بعض منها على وجه الإيجاز كنماذج لما نقول .

(١) السيرة النبوية/ابن هشام حـ٣ صـ١٦٨ تحقيق محى الدين عبد الحميد ط . المطبعة اليمينية بمصر

نماذج من الغزوات

أولا : غزوة بدر الكبرى :

لما هاجر النبى ﷺ من مكة إلى المدينة بعد أن لاقى ما لاقى وترك المسلمون أموالهم وأرضهم وديارهم للمشركين سمع بأن تجارة لقريش فيها مال كثير آتية من الشام فى طريقها إلى مكة وعلى رأسها أبو سفيان بن حرب مع أربعين نفرا من قريش انتدب المسلمين وأغراهم بالعير قائلا هذه عير قريش فيها أموالهم فاخرجوا إليها لعل الله ينفلكموها فأعجبهم تلقى العير لكثرة المال وقلة الرجال ، فلبى دعوة النبى ﷺ ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلا وهو عدد يكفى لما هو بسبيله فاكتفى بهم ، وسلك الطريق المؤدية إلى بدر ، وكانت بدر تمر عليها القوافل التى تقصد طريق الساحل من سوريا إلى مكة ، والمسافة بين يثرب وبدر تزيد على مائة وستين كيلو متر ، وكان عدد الدواب التى اتخذوها لركوبهم فرسين وسبعين بعير يتناوبون فى الركوب عليها ، وصل إلى أسماع أبى سفيان خبر خروج النبى للاستيلاء على القافلة فأرسل أحد رجاله إلى قريش بمكة يعلمهم الخبر ، واتبع هو طريقاً غير طريق القوافل رجاء أن يفلت ممن يترصدونه ، وسارع رجالات قريش إلى نجدته ، فخرجوا تحت قيادة كبرائهم فى تسعمائة وخمسين مقاتلا معهم مائة فرس وسبعمائة بعير محملة بالزاد والسلاح ، وبينما هم فى الطريق وصلهم رسول من أبى سفيان يخبرهم بنجاته هو وقافلته ، ويطلب إليهم الرجوع ، ولكن أبا جهل تحمس للحرب وأبى إلا أن يتقدم ويتابع سيره فصاح قائلا والله لا نرجع حتى نرد بدراً فنقيم عليها ثلاثاً فننحر الجزور ونطعم الطعام ونسقى الخمر وتعزف علينا القيان وتسمع بنا العرب وبمسيرنا وجمعنا فلا يزالون يهابوننا أبداً بعدها ، وهم الذين

قال الله فيهم : « ولا تكونوا كالذين خرجوا من ديارهم بطرا ورئاء الناس »[1] ،

تردد القوم فرجع بعضهم واتبعت سائر قريش رأى أبى جهل ومضوا فى طريقهم حتى وصلوا إلى وادى بدر ونزلوا فى الجانب الأبعد منه .

وانطلق المسلمون مسرعين خوفاً أن تفلت القافلة منهم وهم يحاولون حيثما مروا أن يقفوا على أخبارها حتى أتو وادى ذفران فنزلوا فيه ، وهناك جاءهم الخبر أن قريشاً قد خرجت من مكة فى جيش كبير للدفاع عن أموالها، إذ ذاك تغير وجه الأمر فلم يكن قاصراً على ملاقاة قافلة قليلة العدد بل جيش كبير لم يأخذوا العدة لملاقاته ، وفى ذلك يقول سبحانه « وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم ويريد الله أن يحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين »[2] وأسفرت الغزوة عن انتصار المسلمين لا بعددهم ولا بعتادهم ولكن بإيمانهم الذى ملك قلوبهم ، وفى ذلك يقول تعالى « ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة »[3] ويقول : « فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى »[4] .

وهكذا نرى أن السبب فى خروج المسلمين هو الاستيلاء على قافلة قريش ، والذى تسبب عنه نشوب هذه المعركة هو استرداد بعض حقوقهم المسلوبة فى مكة ، وإذا كانت قريش قد ظلمتهم أثناء إقامتهم بمكة حتى

(١) سورة الأنفال آية ٤٧
(٢) سورة الأنفال آية ٧
(٣) سورة آل عمران آيه ١٢٣
(٤) سورة الأنفال آية ١٧

ألجأتهم إلى الخروج من بلدهم فمن حق المظلوم أن يسترد حقه عند قدرته عليه .

غزوة أحد :

لم يهدأ نشاط الكفار بعد ما أصابهم من هزيمة منكرة فى معركة بدر ، إذ وسمهم بعار لا يمحوه إلا انتصار عظيم الشأن ينالون به من المسلمين ، لهذا أخذوا يعدون العدة لجولة أخرى يثأرون فيها لمن قتل منهم، فأرسلوا إلى العرب يستنفرونهم للقتال، فاستجاب لهم جموع من قبائل شتى وهيأوا المال للإنفاق على هذه الحرب من أرباح التجارة التى عاد بها أبو سفيان قبل معركة بدر .

واستطاع الكفار أن يجمعوا ثلاثة آلاف رجل تحت قيادة أبى سفيان ، ، فلما بلغ النبى خبرهم استشار أصحابه فى البقاء بالمدينة أو فى الخروج إليهم ، وكان رأيه أن يتحصن بالمدينة ، فإن هاجموهم قاتلهم الرجال فى وجوههم ورماهم النساء والصبيان بالحجارة من فوقهم لكن الرجال الذين لم يشهدوا غزوة بدر خاصة الشباب منهم تحمسوا للخروج وأيدهم رجال اشتركوا بغزوة بدر كى لا يرموا بالجبن، وأمام هذه الرغبة استجاب لهم النبى ، صلى النبى الجمعة ووعظ الناس وأمرهم بالصبر والجلد، وبعد الإنتهاء من الصلاة دعا بلأمته فلبسها ، ثم أذن فى الناس للخروج لملاقاتهم ، فلما رأى بعض الرجال استعداد الناس للقتال قالوا لبعضهم أمرنا رسول الله أن نمكث بالمدينة وهو أعلم بالله وما يريد ويأتيه الوحى من السماء ليتنا نعود ونترك الأمر له فقالوا لنبيهم يارسول الله أمكث فى المدينة كما أمرتنا أولا فقال : ماينبغى لنبى إذا أخذ لأمة الحرب وأذن بالخروج إلى العدو أن يرجع حتى يقاتل، وقد دعوتكم إلى هذا الحديث فأبيتم إلا الخروج فعليكم بتقوى الله والصبر عند البأس إذا لقيتم العدو وانظروا ماذا أمركم الله به فافعلوا .

والتقى المشركون بالمسلمين فى أحد ، وفى هذه الغزوة هزم المسلمون لمخالفة الرماة أمر رسول الله ﷺ وانشغالهم بجمع الغنيمة بعد أن تركوا أماكنهم ، كما قتل فيها عدد من أعلام الصحابة وفى مقدمتهم حمزة بن عبد المطلب عم رسول الله ﷺ ، ومصعب بن عمير السفير الأول فى الإسلام وأول داعية فى المدينة، وعبد الله بن جحش، وأنس بن النضر، وسعد بن الربيع ، وعبد الله بن حرام ، وعمرو بن الجموح ، وغيرهم.

وكان وقع الهزيمة صعباً على المسلمين فقد آلمتهم الهزيمة، وتركت آثاراً أليمة فى نفس الرسول ﷺ ، وهذا أوضح دليل على استنفار المسلمين للحرب دفاعاً عن أنفسهم دون رغبة منهم للحرب والقتال .

غزوة الأحزاب :

وسببها أن نفراً من زعماء اليهود من بنى النضير خرجوا حتى قدموا مكة فدعوا قريشاً إلى حرب رسول الله ﷺ ، وقالوا سنكون معكم حتى نستأصله ، وقالوا لهم إن ما أنتم عليه خير من دين محمد ﷺ ، وفيهم نزل قوله تعالى : « ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا، أولئك الذين لعنهم الله ومن يلعن الله فلن تجد له نصيراً »[1] .

فاتفقوا مع قريش على حرب المسلمين وتوعدوهم ، وترك زعماء اليهود قريشا وجاءوا إلى غطفان فدعوهم إلى مثل مادعوا إليه قريشاً، ولم يزالوا بهم حتى وافقوهم على ذلك ، ثم التقوا ببنى فزارة وبنى مرة ، وتم لهم مع هؤلاء جميعاً تواعد فى الزمان والمكان لحرب رسول الله ﷺ

(١) سورة النساء آية ٥١ ، ٥٢

وبذلك نجح ساسة اليهود وقادتهم فى تأليب أحزاب الكفر على النبى ودعوته ، وعرف المسلمون مبلغ الخطر المحدق بهم فهموا بعمل خطة يدافعون بها عن دعوتهم ودولتهم، وكانت خطة فريدة لم تسمع بها العرب من قبل فحفروا خندقاً عميقاً حول المدينة يحيط من ناحية السهل ويفصل بين المغيرين والمدافعين ، وأقبلت الأحزاب فى جمع غفير لا قبل للمسلمين برده ، فقد بلغ جيش المتحزبين من قريش ومن تبعهم للقتال عشرة آلاف مقاتل بقيادة أبى سفيان بن حرب ، كما نقض يهود بنى قريظة العهد الذى بينهم وبين الرسول ﷺ وانضموا إلى كتائب الأحزاب ، وحينئذ عظم البلاء على المسلمين واشتد خوفهم وزلزلوا زلزالا شديداً ،

يقول تعالى : « إذ جاؤكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنون ، هنالك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديداً »[1] .

وفى هذا الجو الملبد بالشدائد يأتى الفرج من الله تعالى ، ويأتى النصر يملأ الآفاق فتتدخل العناية الإلهية لتقمع ظلم الظالمين وتنتصر جانب المظلوم وسرعان ما تحول الأمر لصالح المسلمين فجاءت رياح باردة ورعود مفزعة ونزل المدد من السماء وفر الأحزاب وتفرقوا .

وفى هذا يقول سبحانه : « يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحا وجنوداً لم تروها وكان الله بما تعملون بصيراً »[2] .

(١) سورة الأحزاب آية ١٠
(٢) سورة الأحزاب آية ٩

نماذج من سراياه ﷺ

سرية عبد الله بن جحش :

فى شهر رجب من السنة الثانية بعث رسول الله ﷺ عبد الله بن جحش فى رهط من المهاجرين ، وكتب له كتاباً وأمره ألا ينظر فيه إلا بعد يومين من مسيره ، فإذا نظر فيه ووعى ما كلفه الرسول به ومضى فى تنفيذه غير مستكره أحداً من أصحابه، فسار عبد الله ثم قرأ الكتاب بعد يومين، فإذا فيه امض حتى تنزل نخلة بين مكة والطائف فترصد بها قريشاً وتعلم لنا من أخبارهم ، فقال عبد الله سمعاً وطاعة وأطلع أصحابه على كتاب النبى قائلا : إنه نهانى أن أستكره أحدا منكم فمن كان يريد الشهادة ويرغب فيها فينطلق معى ، ومن كره ذلك فليرجع فلم يتخلف منهم أحد ، غير أن البعير الذى كان يتعقبه سعد بن أبى وقاص وعتبة بن غزوان ند منهما فشغلا بطلبه ، ومضى عبد الله برفاقه حتى نزل أرض نخلة فمرت عير قريش فهاجمها عبد الله ومن معه فقتل فى هذه المعركة : عمرو بن الحضرمى وأسر اثنان من المشركين ، وعاد عبد الله بن جحش بالقافلة والأسيرين إلى المدينة .

سرية بن حارثة إلى القرده :

قال ابن إسحاق : وسرية زيد بن حارثة التى بعثه رسول الله ﷺ فيها حين أصاب عير قريش وفيها أبو سفيان بن حرب على القردة — ماء من مياه نجد — وكان من حديثها : أن قريشا خافوا طريقهم الذى كانوا يسلكون إلى الشام حين كان من وقعة بدر ما كان ، فسلكوا طريق العراق فخرج منهم تجار فيهم أبو سفيان بن حرب ومعه فضة كثيرة . وهى أعظم تجارتهم ، واستأجروا رجلا من بنى بكر بن وائل يقال له فرات بن

حيان ، وبعث رسول الله ﷺ زيد بن حارثة فلقيهم على ذلك الماء ، فأصاب تلك العيرة وما فيها وأعجزه الرجال فقدم بها على رسول الله ﷺ وقد قال حسان بن ثابت فى غزوة بدر الآخرة يؤنب قريشا لأخذهم تلك الطريق :

دعوا فلجات الشام قد حال دونها ... جلاد كأفواه المخاض الأوارك
بأيدى رجال هاجروا نحو ربهم ... وأنصاره حقا وأيدى الملائك
إذا سلكت للغور من بطن عالج ... فقولا لها ليس الطريق هنالك(١)

سرية كرز بن جابر لقتل البجليين الذين قتلوا يسارا :

قال ابن هشام : حدثنى بعض أهل العلم عمن حدثه عن محمد بن طلحة عن عثمان بن عبد الرحمن قال : أصاب رسول الله ﷺ فى غزوة محارب وبنى ثعلبه عبدا يقال له يسارا ، فجعله رسول الله فى لقاح له كانت ترعى فى ناحية الجماء — موضع — فقدم على رسول الله ﷺ نفر من قيس كبة (قبيلة من بجيلة) فاستوبئوا — أصابهم وباء وهو كثر الأمراض — وطحلوا — أصابهم وجع الطحال — فقال لهم النبى لو خرجتم إلى اللقاح فشربتم من ألبانها وأبوالها فخرجوا إليها ، فلما صحوا وانطوت بطونهم (صارت فيها طرائق الشحم وعكسنه ، عدوا على راعى رسول الله يسارا فذبحوه وغرزوا الشوك فى عينيه ، واستاقوا اللقاح فبعث

(١) السيرة النبوية ، ابن هشام جـ ٣ ص ٣٦ — دار التراث العربى ، القلجات / العيون الجارية ، المخاض / الإبل الحوامل ، الأوارك / التى ترعى شجر الأراك ، الغور / المنخفض من الأرض ، عالج / موضع ، رمل كثير .

رسول الله فى آثارهم كرز بن جابر فلحقهم فأتى بهم رسول الله ﷺ مرجعه من غزوة ذى قرد فقطع أيديهم وأرجلهم وسمل أعينهم»[1].

وهكذا كانت السرايا والغزوات التى خاضها المسلمون مع رسول الله ﷺ للدفاع ورد الظـــلم والعدوان عن دينهم وبلدهم وليس كما يصوره أعداء الإسلام إذ ينظرون إلى هذه السرايا على أنها نوع من قطع الطريق ونهب الأموال، وهو كلام مردود وقد دفعهم إليه الحقد الدفين للإسلام والكيد للمسلمين «كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذباً».

(١) السيرة النبوية — ابن هشام جـ ٤ ص ٤٧٥ ط دار التراث العربى للطباعة والنشر.

المراجـــع

القرآن الكريم.

— أحكام القرآن الكريم — أبو بكر الجصاص القاهرة ١٣٤٧.

— بحوث فى الدعوة الإسلامية — الأزهر الشريف — اللجنة العليا للاحتفال بالعيد الألفى للأزهر ١٤٠٣ هـ — ١٩٨٣م ط، الشركة المصرية للطباعة والنشر.

— الترغيب والترهيب — الحافظ المنذرى — نشر مكتبة شباب الأزهر.

— التعريفات — الجرجانى — القاهرة ١٣٥٧ هـ — ١٩٣٨ م

— تفسير القرآن العظيم — ابن كثير — نشر مكتبة التراث الإسلامى — سوريا — حلب.

— جامع الأحاديث — السيوطى.

— حقيقة الجهاد فى الإسلام — د/ محمد نعيم ياسين — الكويت ١٤٠٤ هـ — ١٩٨٤ م.

— الدعوة الإسلامية — أصولها ووسائلها — د/ أحمد غلوش — دار الكتاب المصرى — القاهرة — دار الكتاب اللبنانى — بيروت.

— السيرة النبوية — ابن هشام — ط. المكتبة التجارية.

— شرح السير الكبير — محمد بن الحسن الشيبانى تحقيق د/ صلاح النجار

— شرح المواهب — الزرقانى — المطبعة الأزهرية سنة ١٣٢٠هـ

— العبودية — ابن تيمه.

— فتح البارى بشرح صحيح البخارى — ابن حجر العسقلانى — بيروت ١٣٧٩ ه .

— فى ظلال القرآن — سيد قطب — بيروت ١٤٠٥ ه — ١٩٨٥ م

— كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس — اسماعيل بن محمد العجلونى الجراجى .

— لسان العرب — ابن منظور — ط دار المعارف .

— هـداية المرشدين — على محفوظ — نشر المكتبة المحمودية التجارية .